تأثير الإصلاحات العثمانية على تونس
من خلال إتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي الضياف

The impact of the Ottoman reforms in Tunisia
Through the Alitahaf of Ahmed bin Abi Diaf
L'impact des réformes ottomanes sur la Tunisie
À travers le Alitahaf d'Ahmed bin Abi Diaf

منى صالحي. أستاذ محاضر"أ". قسم التاريخ -جامعة المسيلة- الجزائر
mounasalh@gmail.com

تاريخ الاستلام: 17 – 02 – 2019 تاريخ القبول: 23 – 02 - 2019 تاريخ النشر: 28 – 05 - 2019

الملخص

كانت الدعوة إلى الإصلاح في الدولة العثمانية ضرورة ملحة خلال القرن التاسع عشر، فظهرت عدة مشاريع إصلاحية؛ منها المشروع الإصلاحي المتأثر بالغرب والذي طبق بضغط من الدول الاستعمارية، ولم يقتصر الأمر على استانبول بل انتقلت الإصلاحات إلى بعض المقاطعات العثمانية ومنها تونس؛ والتي عرفت في وقت مبكر تنظيمات وقوانين على شاكلة الإصلاحات العثمانية، وهي أول بلد إسلامي طبق الدستور. فما الذي جعل تونس تطبق الإصلاحات العثمانية وتكون رائدة في ذلك؟ وماهي تأثيراتها؟

الكلمات المفتاحية: الإصلاحات التونسية، التنظيمات، عهد الأمان 1857. الدستور التونسي 1861.

Summary:
The Reforms in the Ottoman Empire were an necessity during the 19th century. Several reform projects emerged. Among them were the Western-influenced reform project, which was applied under the pressure of the colonial powers, not only in Istanbul but also in some Ottoman provinces, including Tunisia; Early Ottoman-style organizations and laws, the first Islamic country to implement the constitution. What made Tunisia implement the Ottoman reforms and be a leader in that? What are their effects. to answer these questions, we will rely mainly on the book "Etahaf Ahl al-Zaman" by Ibn Abi Diaf. He is one of the pioneers of reform in the Tunisian country.

Keywords: Tunisian reforms. Tanzimat. Tunisian Constitution of 1861. Fundamental Pact of 1857.

المؤلف المرسل: د. منى صالحي ، الإيميل:***mounasalh@gmail.com***

يُعدُّ القرن التاسع عشر نقطة تحول تاريخي في العلاقات بين الغرب الأوروبي والشرق الإسلامي، وقد كان الغرب يمثل تحديا تاريخيا ضاغطا على المسلمين نتيجة التطورات التي شهدتها أوروبا في النظم والقوانين من جهة، وفي النمو والتطور العلمي والصناعي من جهة أخرى. كما تحولت أوروبا من مرحلة الرأسمالية التجارية إلى الرأسمالية الصناعية وبدأت تغزو العالم وتفرض سيطرتها بتعالٍ على المسلمين. وقد تلاحقت خلال تلك الفترة التطورات التي قلبت معها الموازين السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية للدولة العثمانية،وكانت الدعوة إلى الإصلاح ضرورة ملحة في الفترة، فتعددت المشاريع الإصلاحية؛ منها المشروع الإصلاحي المتأثر بالغرب والذي طبق بضغط من الدول الاستعمارية، ولم يقتصر الأمر على استانبول بل انتقلت الإصلاحات إلى بعض المقاطعات العثمانية ومنها تونس؛ والتي عرفت في وقت مبكر تنظيمات وقوانين على شاكلة الإصلاحات العثمانية، وهي أول بلد إسلامي طبق الدستور. فما الذي جعل تونس تطبق الإصلاحات العثمانية وتكون رائدة في ذلك؟ وماهي تأثيراتها؟

للإجابة على هذه الأسئلة سنعتمد بصفة رئيسة على كتاب "إتحاف أهل الزمان" لابن أبي الضياف،[1] فهو من رواد الإصلاح في البلاد التونسية كما كان كاتب الباي ورسوله إلى استانبول،وهو الذي حرر عهد الأمان وأيد خير الدين باشا التونسي.[2]وسنتدرج في دراستنا

---

[1] **ابن أبي الضياف**: هو أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر من قبيلة أولاد عون، وهي قبيلة حسينية مستقرة بسليانة، أسرته تنتمي إلى الولي الصالح سيدي أحمد الباهي. ولد بحي باب سويقة بالحاضرة في 1217هـ/1802، تلقى تعليمه على خيرة مشايخ عصره منهم إسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي، في سنة 1822 عين في خطة إشهاد بمدينة تونس، وفي سنة 1827 عين كاتبا بالبلاط الحسيني وبقي فيه إلى سنة 1864كلف بمهام سياسية دقيقة ومبعوث في السفارات إلى الخارج، توفي في 1291هـ/1874م.

[2] **خير الدين التونسي**:شركسي الأصل كان مملوكا بيع وهو طفل في استانبول، تربى في بيتأحد رجال الدين ثم اشتراه أحد أعوان المشير أحمد في سنة 1839، ونقله إلى تونس حيث انتظم في خدمة الباي تعلم على يد الضباط الفرنسيين الذين استقدمهم المشير أحمد، في 1842 عين أمينا بعسكر الخيالة ثم ترقي إلى أن أصبح في 1850 أمير لواءثم امير الأمراء، وفي 1857 عين أميرا للبحر، عين في سنة 1861 نائبا لرئيس المجلس الأكبر ثم رئيسا له، اعترض على بعض قرارات المجلس واستقال. كلف في فترة اعتزاله

حسب المحاور: الإصلاحات في الدولة العثمانية، ثم ظروف وعوامل انتقال التنظيمات إلى تونس ثم نتناول مدى نجاحها.

أولا: الإصلاحات في الدولة العثمانية:

اختلف الباحثون في بداية الإصلاح بالدولة العثمانية، فمنهم من يرجعها إلى عهد السلطان سليم الثالث، بينما يفرق قيس جواد العزاوي[3] بين الإصلاح المتأثر بالغرب والإصلاح الداخلي، والأخير بدأ بدعوات إصلاحية قدمت للسلاطين العثمانيين منذ منتصف القرن السادس عشر، فقد كتب المؤرخ مصطفى علي أفندي جيليولو (1541-1599)، للسلطان مراد الثالث رسالة بعنوان: "مفاخر النفائس في كفاية المجالس" يصف فيها الحكومة العثمانية ويركز على بذخ الطبقة الحاكمة.

وبحلول القرن الثامن عشر كشفت الهزائم العسكرية بجلاء عن هرم بنيان الدولة العثمانية، وبدأ تفكير السلاطين في إصلاح المؤسسات وبخاصة العسكرية منها؛ متبعين الأساليب الأوربية. وتشير الوثائق العثمانية إلى أن أول مسؤول سياسي عثماني سعى للإصلاح متأثرا بالغرب هو الدامادا إبراهيم؛ الذي أصبح صدرا أعظما مابين (1718-1730)، وتأثر به السلطان أحمد الثالث (1703-1730)، مما جعل الإنكشارية رافضي التحديث يقتلون الصدر الأعظم ويعزلون السلطان. لكن إصلاحات العسكر المشهورة بدأ بها السلطان سليم الثالث (1788-1808)؛ فالإصلاح البارز في عهده يتمثل في إقامة أول تجربة في الإطار الإسلامي عرفت باسم "نظام جديد" مرفقا بإصلاح اقتصادي سمي "إيراد جديد"،[4] وأنشأ

بإيصال أوسمة إلى عدد من ملوك أوروبا، وفي 1873 عين خير الدين وزيرا أكبر و استمر إلى 1877قدم إنجازات مهمة، وبعد استقالته استدعاه السلطان عبد الحميد فغادر تونس في 1878حيث عين صدرا أعظم اعترضته أثناء ذلك صعوبات كثيرة فاستقال في 1879، ولم يشغل بعدها وظيفا رسميا إلى ان توفي باستانبول في سنة 1890.

[3] **الدولة العثمانية، قراءة جديدة في عوامل الانحطاط**، ط.2، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2003،ص.38.

[4] المرجع نفسه، ص، ص.44،46.

فرقا عسكرية على شاكلة النظام الأوربي. وكان الغرض من ذلك هو ترتيب العساكر النظامية والاستغناء بهم عن الإنكشارية. ويرى بعض الباحثين[5] أن تنظيم الجيش على الأساليب الأوربية كان نتيجة الحاجة الملحة والضرورة القصوى أكثر من كونها إعجابا عشوائيا شعر به المسؤولون تجاه أوروبا.

عارضت القوات التقليدية بقوة "النظام الجديد"، وطلب الإنكشارية دعم الشيوخ لإيقاف الإصلاح على النمط الغربي، واتهم السلطان سليم الثالث بتغريب المجتمع العثماني، لقد كان هذا الإصلاح في نظر القوة المحافظة مساويا للخيانة، ومنافيا للشريعة الإسلامية.[6] وحدث صراع بين المحافظين والإصلاحيين أدى إلى عزل السلطان، كما أفتى شيخ الإسلام بأن كل سلطان يدخل نظام الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على إتباعها، لايكون صالحا للملك، فعُزل السلطان سليم الثالث وفي 1808 وجد مقتولا في قصره[7].

إن هذه المحاولة الأولية للتحديث التي أخفقت في إستانبول في بداية القرن التاسع عشر؛ تزامنت معها حركة إصلاحية أخرى بمصر، فقد قام محمد علي بحركة إصلاحية مستمدة من التجربة العثمانية في تجديد القوة العسكرية. حيث بدأ بإزالة العقبات الرئيسية التي تعيق إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقام بتنظيم مجزرة المماليك في سنة 1811.

تزامنت إصلاحات محمد علي بمصر مع توتر العلاقات الدولية في البحر المتوسط، وبخاصة بين فرنسا وبريطانيا، وتنافسهما للتوسع على حساب الدولة العثمانية، والتي كانت

---

[5] إكمال الدين إحسان أوغلى وآخرون، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ج.1، تر: صالح سعداوي، مركز الأبحاث والفنون والثقافة، إستانبول، 1999، ص.79.

[6] B.Tlili, ***Nationalisme, Socialisme , et Syndicalisme dans le Maghreb des années 1919 -1934 ,Fondement et positions des réformismes,*** publications de l'université de Tunis, 1984, T.1,p.46.

[7] محمد فريد بك المحامي، **الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، ط.1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1981، ص.392.

منشغلة بحربها مع روسيا، ومع الأقليات القومية والدينية التي تريد الانفصال عنها، بالإضافة إلى حركة محمد بن عبد الوهاب في الحجاز، والتي حاول محمد علي القضاء عليها، والتوسع في بلاد الشام وشمال إفريقيا، لذلك كان تركيزه على تنظيم الجيش وحداثته ليقوم بدوره خارج الحدود المصرية. وحتى يتمكن من إصلاح بقية المؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية أنشأ مؤسسات تعليمية على النمط الأوروبي، وأرسل بعثات علمية إلى أوروبا، وشجع الترجمة والنشر، وأنشأ الصحف والمدارس العليا المتخصصة.

لقد أثرت التجربة الإصلاحية المصرية على بقية المقاطعات العربية والإسلامية وحتى على الدولة العثمانية نفسها، فقد استبدل السلطان محمود الثاني[8] الإنكشارية بقوات نظامية، وفي 1826 قضى على الإنكشارية وعلى الطريقة البكداشية التي ينتمون إليها. وبذلك دخلت الدولة العثمانية مرحلة جديدة من الإصلاح.

تُعد سنة 1839 نقطة تحول تاريخي في إصلاحات الدولة العثمانية، فقبل هذا التاريخ كان مفهوم "الإصلاح" هو إقامة مؤسسات جديدة إلى جانب المؤسسات القديمة من دون المساس بها، لكن بعد هذا التاريخ أصبح الاتجاه نحو التخلص من المؤسسات القديمة وإقامة مؤسسات جديدة، معتمدين في ذلك على القوانين والنظم الأوروبية،[9] وهذا ما يسميه الباحثون بمرحلة "التنظيمات" ويسميها قيس جواد العزاوي[10] ب"الإصلاح المفروض" من قبل الدول الأوربية على السلاطين، وتميل بعض الدراسات إلى تسميتها

---

[8] **السلطان محمود الثاني(1785-1839)** ابن السلطان عبد الحميد الأول تلقى تعليما تقليديا قاعدته الأدب والموسيقى واللغة العربية، ترسخ في ذهنه مثل الأمراء العثمانيين مفهوما روحيا لسلطة الإمبراطورية. لم يكن إعداده جيدا ليلعب دوره في الإصلاح. ولى الحكم في 1808 وكان عهده عهد اضطراب سياسي في الداخل وتهديد روسي من الخارج. حاول الإصلاح الداخلي والتنظيم، وفي عهده فتحت أبواب الدولة للتأثير الأوروبي، ولم تؤد إصلاحاته إلى النتائج المرجوه. المرجع: عبد الوهاب الكيلاني وآخرون، الموسوعة السياسية، ج.6، ص.108.

[9] يُرجِع إكمال الدين إحسان أوغلي البداية الحقيقية للتنظيمات إلى سنة 1826، مرجع سابق، ص.98

[10] مرجع سابق، ص-ص.58-59

بالإصلاح "Réforme"،[11] إلا أن المصادر التركية استخدمت كلمة "تنظيمات" "وهو من المفاهيم المنقولة عن الغرب، حيث ترى هذه المصادر أنه علم على عهد بعينه. فلا هو انقلاب ولاحتى إصلاح...بل أنه عهد تنظيم وتقنين واع يعتمد على "مبدأ التدرج" خارج هذين الحدين. فيجدر بنا أن نضع المغزى لاصطلاح "التنظيمات" ليس بالنظر إلى المعاجم وإنما بالنظر إلى الاستخدام الاصطلاحي في ذلك العصر. وهو بهذا المعنى تنظيم وتشريع لعهد بأكمله"[12].

بدأت حركة التنظيمات رسميا بخط كلخانة في 3 نوفمبر 1839 حيث كان الصدر الأعظم رشيد مصطفى باشا المسؤول الأول عن صدوره، وأول خطوة في هذا التنظيم هي ضمان الأمن الكامل للرعايا الأوربيين على حياتهم وممتلكاتهم.والهدف منه هو تحويل السلطة الإسلامية إلى سلطة يكون فيها أتباع الأديان متساوين في جسم الجماعة السياسي، ومشتركين معا في الشعور الوطني، لاسترضاء الدول الأوربية. وعلى الرغم من ردود الفعل القوية المعارضة للقانون في أنحاء الدولة العثمانية فقد أصدر السلطان خط همايون أثناء حرب القرم في 18 نوفمبر 1856، ونص على منع أي تمييز تبعا للعرق أو الدين، وضمان الحقوق الدينية لجميع الرعايا، مع مراعاة أوضاع الطوائف والأقليات والتي توطدت علاقتها آنذاك بالدول الأوربية.[13]أما عن النتائج الأولية للتنظيمات فقد رافقها تغير حقيقي في ذهنية ساسة الدولة العثمانية، وتغير محسوس في الهياكل وسير عمل الدولة، وتجاوز الأشخاص ليمس العادات والتقاليد وفهم الدولة لطبيعة واقعها ومهامها المفروضة.انتقلت عدوى الإصلاحات إلى الدول العربية حيث أُسس في مصر في عهد الخديوي إسماعيل "مجلس شورى النواب" قال عنه جمال الدين الأفغاني إنه يتم فيه التصديق رسميا على امتصاص قُوت الفلاح واستغلاله.[14] وقد كان رجال الإصلاح في تلك الفترة حذرين من تلك المؤسسات

---

[11] نادية ياسين عبد، **الاتحاديون، دراسة تأريخيه في جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية "أواخر القرن التاسع عشر-1908"**، ط.1، دار عدنان، بغداد، العراق، 2014، ص.74.

[12] إكمال الدين إحسان أوغلي، ج.1، مرجع السابق، ص.321.

[13] سليمان البستاني، **عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده**، تحقيق: خالد زيادة، ط.1، دار الطليعة بيروت، لبنان، 1978، ص.25.

[14] قيس جواد العزاوي، مرجع سابق، ص.ص.61-62.

لأنها مبنية على قوانين غربية، وأُبعد التشريع الإسلامي في مجال السياسة والتجارة والاقتصاد. واكتملت الإصلاحات على النمط الغربي بإقرار دستور مدحت باشا في 1876.

ثانيا: ظروف وعوامل انتقال التنظيمات إلى تونس:

لم تكن تونس بعيدة عن التحولات التي حدثت في العالم وبخاصة بعد مؤتمر فيينا 1815، ففي هذه الفترة بدأت تونس تدخل مرحلة الأزمة الداخلية الاقتصادية والسياسية، كما بدأت تهديدات الأساطيل الأوربية للسواحل المغاربية بحجة القضاء على القرصنة، واشتد تنافس كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا للاستيلاء على الإيالة التونسية.

عرف القرن التاسع عشر اختلال موازين القوى بين الشرق والغرب، فقد تدهورت أوضاع تونس السياسية في ستينات القرن التاسع عشر وزادها تدهورا الجفاف والجراد والمجاعة والمديونية، وكان انحطاط تونس شاملا اقتصاديا واجتماعيا وعلميا وسياسيا. ولم يكن للدول الاستعمارية أن تنجح في ضغوطها التي انتهت بالاستعمار لولا التأزم البنيوي الداخلي في المجتمع والدولة التونسية، وضعف الدولة العثمانية. وقد كان الإصلاح في نظر الساسة العثمانيين كمخرج للأزمة التي تعيشها الدولة ومقاطعاتها، فمادى قناعة التونسيين باتباع التنظيمات التي فرضتها الدولة العثمانية؟

أ**ضغط الدولة العثمانية للإصلاح:** إن الظروف الداخلية والخارجية للدولة العثمانية جعلتها تشعر بضرورة تأكيد سياستها الإصلاحية باتباع سياسة أكثر مركزة، وبخاصة بعد أن فقدت أهم إيالة وهي الجزائر، فأعادت سيطرتها بالقوة على طرابلس الغرب في سنة 1835، وبدأ الباب العالي بإخضاع الإيالة التونسية لإدارته المباشرة، مطالبا الباي بتطبيق التنظيمات. يبدو أن حكام تونس في هذه المرحلة كانوا متخوفين من الباب العالي حيث راجت إشاعة أن قائد الأسطول العثماني يعتزم أن يلحق تونس بقوة بطرابلس الغرب،[15] وهذا ما جعل الطبقة الحاكمة في تونس تستعد للمواجهة الحربية مع الأتراك.

---

[15] أحمد بن أبي الضياف، **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، منشورات زخارف، تونس، 2016، ج.6، ص.15

وساد في تلك الفترة خطاب شبه رسمي يؤكد استقلالية تونس.[16] وهو مانلمسه من كتاب الاتحاف لابن أبي الضياف حيث كان متعلقا بفكرة وجود أمة تونسية وذلك لا يتنافى مع انتساب تونس إلى الأمة الإسلامية والاعتراف بالدولة العثمانية، وهو ما عبرعنه بقوله: "إن هذه الإيالة "مملكة" ملك من الممالك العثمانية، المرسومة في الطبع الجغرافي لا مملكة جمهورية، إلا أن صاحبها مطلق التصرف بمقتضى التفويض السلطاني، يختلف صاحبها باختلاف طباع الملوك"[17].

ولم يكن تخوف الحكام التونسيين من إلحاقهم بطرابلس فحسب بل ازدادت خشيتهم من فرض مقتضيات التنظيمات عليهم والمتمثلة في التبعية الإدارية وتحوير هياكل الحكم، وعلى الرغم من إعجاب المشير أحمد باي الشديد بالنظم والحضارة الغربية وإظهار طاعته للسلطان؛إلا أنه كان محترزا من تطبيق التنظيمات بله "كارها لها لمنافاتها أغراضه"[18].ولعل هذا ماجعل ابن أبي الضياف يصف أمر السلطان بتطبيق قانون1839 بأنه "غرض محمود ولابد من زمن لإبرازه إلى الوجود، لاختلاف الطباع والبقاع، وهو أمر لامحيص عنه ولابد منه".[19] فموقف المشير أحمد"1806-1855" والمشير محمد "1811-1859" من التنظيمات هو ماعبر عنه روبير برونشفيك(R.Brunchschvig)[20] بأنه لم يكن كلاهما متحررا ولا مفطورا على الإصلاح بل أنهما بطرقهما الخاصة وحسب الوضع السياسي الدولي أحسا بضرورة المجاملة والتنازل للرأي العام الدولي وبضرورة تقويم الوضع في الداخل. ويظهر جليا موقف ابن أبي الضياف من التنظيمات حين أرسله الباي إلى إستانبول في مارس 1842،فقد ألح عليهاالصدر الأعظم عزت باشا بضرورة السرعة في ترتيب

---

[16] عبد الحميد هنية، **تونس العثمانية بناء الدولة والمجال**، دار أوتار، تبر الزمان، تونس، 2016، ص.206.

[17] ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج.1، ص.31

[18] المصدر نفسه، ج6، ص.20

[19] المصدر نفسه، ج3، ص.38

[20] المنصف الشنوفي، "رسالة ابن أبي الضياف في المرأة"،**حوليات الجامعة التونسية**، ع.5، 1968، ص.61

التنظيمات وقال له أنتم بدونها في خطر. لكن رد ابن أبي الضياف "أن التنظيمات الخيرية يتعسر إجراؤها في بوادي المغرب".[21]

المعروف لدى الباحثين أن الإصلاحات في تونس بدأت في عهد المشير أحمد باي فكانت إصلاحاته في الميدان العسكري، متأثرا في ذلك بمحمد علي والي مصر، فبدأ من سنة 1840 بتأسيس مدرسة عسكرية بباردو لتكوين الضباط على الطريقة الأوروبية. كما اهتم بتكوين أسطول عسكري واشترى سفنا حربية، وأنشأ مصانع لخدمة حاجيات الجيش، لكن هذه الإصلاحات كلفت الخزينة مصاريف باهظة فخفض عدد الجنود. ولم يكن الجيش ليقوم بدوره في صد الهجوم الخارجي حيث استخدم لإخماد الانتفاضات الداخلية. كما اهتم المشير أحمد بالإصلاحات الاقتصادية وحاول إصلاح التعليم في الزيتونة وألغى الرق، لكن جهوده كانت محدودة وقليلة الأثر وذلك لضعف الإيالة ماديا. ولم يكن المشروع الإصلاحي متكاملا حتى يؤتي أكله.

ب- **ضغط الدول الاستعمارية:** اتخذت الدول الاستعمارية الأقليات الدينية في الدولة العثمانية ذريعة للتدخل في شؤونها، وأهم قانون أصدره العثمانيون خط همايون في سنة 1856 والذي يسوي بموجبه بين المسلمين وغيرهم. وفي الفترة نفسها ازداد ضغط القنصلين البريطاني والفرنسي على المشير محمد لاسيما بعد تعيين ليون روش قنصلا في تونس، حيث استغلا حادثة قتل يهودي في تونس وقدما للباي تهديدا سموه"نصيحة" لتطبيق التنظيمات التي أمر بها السلطان، حيث قال القنصل البريطاني للباي "إذا سمعت نصيحتي فبادر إلى هذا الأمر لأن أسطولنا في مالطا ينتظر جوابي مع فابور حاضر لحمله، وإذا طال مقام الأسطول الفرنساوي فلا جرم أن دولتي تبعث أسطولها، ولايبعد أن الأسطول العثماني يقدم، ولانعلم ماسيكون، وربما يتسع الخرق على الراقع..."[22]،إن هذا التهديد جعل الباي يميل إلى إصدار أمر بتطبيق التنظيمات أو ماسمي ب "عهد الأمان"،لكن ابن أبي الضياف استمر متخوفا، فيقول أن المشير محمد باي تسارع إلى قبول التنظيمات فقد حذرته

---

[21] ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج.1، ص.68.

[22] ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج4، ص.234-236.

قائلا:"ياسيدي إن الأمر صعب على مثلك، فاعرف ماتلتزم به فإنك بهذا الأمر تكون يداك هكذا، وقبضت يدي إلى جنبي، ولكن الباي قبل لأجل الرعية"[23]. فما كان من حكومة الباي وعلى رأسها شيخ الإسلام محمد بيرم إلا الإسراع في إصدار عهد الأمان، وعلى الرغم من أن ابن أبي الضياف اعتذر للقنصل البريطاني بأن هذا القانون يمس الدين الإسلامي، إلا أنه رضخ تحت التهديد، وكتب نص عهد الأمان في ليلة واحدة، وقرئ من الغد(في يوم9سبتمر 1857) أمام أهل المجلس الشرعي وأعيان الدولة وأمير الأسطول وقناصل الدول وكبير الأساقفة والرهبان وأحبار اليهود وغيرهم. وهذا القانون يعطي صلاحيات واسعة للأجانب ولغير المسلمين في تونس ويسوي بين المسلم وغير المسلم، ويعطي لهم حرية التجارة والتملك، وهو ماكان يبحث عنه الاستعمار الرأسمالي.

ج-**القناعة بضرورة الإصلاح:** يرى بعض الباحثين[24] أن مرحلة التردد في قبول الإصلاح انتهت في منتصف القرن التاسع عشر، فبعد أن كان الباي وأعوانه يقفون من الإصلاحات موقف عدم الثقة ظهر في النصف الثاني ثلة من الشباب التونسي تجاوزوا المرحلة السابقة، ورأوا ضرورة إصلاح نظم الحكم في الدولة العثمانية، وفي جميع الأراضي التابعة لها، بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية.

وكان تركيز تيار الإصلاح في نهاية القرن التاسع عشر على إصلاح الدولة، وهي التي تشكل أيضا في الوقت نفسه وسيلة للإصلاح،وتلك مفارقة فكرية معقدة تميز المنهج الإصلاحي على الصعيدين الفكري والسياسي العملي.[25]وكانوا يرون ضرورة الاستعانة بالنظم القوانين الغربية القائمة على العدالة والحرية، ويعد ابن أبي الضياف من أوائل رجال الإصلاح التونسي المعجبين بالغرب وبخاصة بعد زيارته لفرنسا رفقة الباي في سنة 1846،

---

[23] المصدر نفسه، ج4، ص.239.

[24] احمد عبد السلام، "تجاوب رجال الإصلاح في تونس مع الأحداث التركية في بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر"، **الحياة الثقافية**، ع.15/14، ماي/جوان، 1981. تونس، ص.6

[25] زهير الذوادي، **تناقضات المشروع الإصلاحي لدي بيرم الخامس**، الأطلسية للنشر، تونس، د.ت، ص.10

ففي نظره أن بلوغ أوروبا ذلك المستوى من العمران لم يكن إلا بإقامتهم لقوانين العدل،[26] ونظم تلك البلدان في مجملها دستورية، وقد خصص شطرا من الجزء الأول من الإتحاف لبيان ضرر الملك المطلق وضرورة الملك المقيد، ولايقيد الملك إلا بدستور أو قانون، لذلك ساهم في إكمال إجراءات عهد الأمان ، فقد عينه الباي من ضمن اللجنة تحرير الدستور الذي بدأ العمل ابتداء من أفريل 1861، وكان هو الوحيد من أعضاء اللجنة الذي له تكوين فقهي بعد أن انسحب المفتيين والقضاة. لقد أصبح ابن أبي الضياف مقتنعا ومتحمسا للدستور، كما تحمس له خير الدين التونسي، وقد كان هناك لحمة جديدة وتجاوبا فكريا بين دعاة الإصلاح في تونس ودعاة التنظيمات في الدولة العثمانية.[27]

التف رجال الإصلاح حول خير الدين التونسي ومنهم ابن أبي الضياف والجنرال رستم ومحمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي وغيرهم، وكان خير الدين من علماء الدين المتفتحين ومن العارفين بشؤون أوروبا، حيث حاول بلورة تفكير سياسي ثقافي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين المحافظة على الدين والاستفادة من الحداثة الأوروبية، وهو لايدعو إلى الإصلاح فقط بل يجري مقارنات بين الماضي والمستقبل بين أوروبا والإسلام. حيث يقول في مقدمة كتابه أقوم المسالك[(28)]: "والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك أوروبية إلى ماهي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية أن نتخير منها مايكون بحالنا لائقا، ولنصوص شريعتنا مساعدا موافقا... وبناء على ذلك يقال هنا، هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار إليه دون تقدم في المعارف وأسباب العمران والمشاهدة عند غيرنا، هل يتيسر ذلك التقدم دون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسيس على دعامتي العدل والحرية اللذان لهما أصل في شريعتنا، ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك"، هذا ملخص مشروع خير الدين وهو يكاد يكون

---

[26] ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج.1، ص.57

[27] أحمد عبد السلام، مقال سابق، ص.6

[28] خير الدين التونسي، **أقوم المسالك في أحوال الممالك**، ج1، تحقيق: المنصف الشنوفي، بيت الحكمة، تونس، 2013، ص.97

مطابقا لآراء ابن أبي الضياف في الإتحاف، وهو يقوم على اقتباس النظم الغربية بما يتناسب وإنهاض الأمة الإسلامية، لكن مشروعه أخفق لأنه اصطدم بالفساد الإداري والظلم وسوء التصرف المالي، وفشل تطبيق القانون، الذي وقفت أمامه القوة الممانعة للتغيير –باي تونس والسلطان العثماني- اللذين كان وزيرهما.

ثالثا: تأثيرات عهد الأمان

لقد ظهرت التأثيرات الإيجابية للدستور على الرعايا الأوربيين، واليهود والمسيحيين بتونس، من حرية التجارة والتملك، وحريتهم في اللباس، وازدادت الامتيازات الأوربية في تونس إذ لم يكن الأوربيون المقيمون في تونس يخضعون لسلطة المحاكم التونسية، في المسائل العقارية والتجارية والمدنية، وإنما يخضعون لقناصل بلدانهم، وهذا ما شجع سيطرتهم على التجارة والعقارات وازدادت الامتيازات والمعاهدات اللامتكافئة التي سمحت بالملكية العقارية للأجانب والتي نص عليها عهد الأمان في سنة 1857، لقد كانت هذه القوانين وبالا على تونس وكانت انعكاساتها وخيمة على سيادة تونس واقتصادها.[29]

إن القوانين لاتؤدي إلى نتيجة مالم تجد الإرادة لتطبيقها على الجميع وبالتساوي، وحتى على الحكام أنفسهم، ولعل هذا ماجعل ابن أبي الضياف يعالج في كتابة مسألة الملك المقيد والعدل والحرية، وينتقد سياسة ملوك المسلمين في جور وحكمهم المطلق. وإن حفظ الدستور التونسي للباي السلطة التنفيذية إلا أنه حد من سلطته التشريعية والقضائية، ويرى بعض الباحثين[30] أن بعض التراتيب الناتجة عن الدستور والمستوحاة من التنظيمات الأوروبية لو احترمت وطبقت كانت ستمثل ثورة حقيقية في نظام الحكم بتونس.

فالدستور إن طبق في بعض أجرائه إلا أنه لم يطبق على التونسيين بالتساوي. فلم يكن هناك انتخابات لأعضاء لمجلس الأعظم، بل تم تعيينهم من قبل السلطة التنفيذية،

---

[29] علي المحجوبي، **العالم العربي المعاصر**، تخلف فاستعمار فمقاومة، ط.1، الانتشار العربي، لبنان، دار محمد علي، تونس، 2009، ص.41

[30] علي المحجوبي، **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر، لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان**؟، سراس للنشر، تونس، 1999، ص.96.

وأوكلت مهمة العمل بالدستور إلى الوزير الأول مصطفى خزندار الذي استغل سياسة الإصلاح للثراء الفاحش. بل أن الباي في سنة 1863 اقترض من التجار اليهود والفرنسيين مامقداره35 مليون فرنك فرنسي، بالربا وهو مبلغ تعجز الدولة عن تسديده، وكان هذه الأموال تصرف على الأمور التحسينية، وأبقى الباي على المرتبات العالية له ولحاشيته ووزائه،[31] في حين فرض على بعض القبائل دفع "إعانة" للدولة وأعفى مناطق أخرى، وصادف ذلك سنوات عجاف، فثار قبائل الغرب التونسي بما يسمى بثورة ابن غذاهم في سنة 1864، انتهت بإلغاء الدستور.[32]

كما أعطى الدستور القوة للقناصل الأوروبيين وبخاصة الفرنسيين للتدخل في شؤون الدولة التونسية، وقد كان للقنصل الفرنسي ليون روش تأثير كبير على قرارات الباي حيث يقول ابن أبي الضياف "بوصول ليون روش داخل الباي مداخلة ولي حميم، وتراضى على صحبته والامتزاج به، غير مبال بمنصبه ولابمقام سلطانه"،[33] وهو من ساهم في إيقاع الباي في أزمة الديْن، فازدادت الضائقة المالية بالدولة، وازدادت الامتيازات الأجنبية وانتهت بالاحتلال.

نستنتج من دراستنا:

- أن تطبيق الإصلاحات في تونس على شاكلة الإصلاحات العثمانية كان لظروف سياسية تخص الدولة العثمانية، وهو إجراء للمحافظة على تونس.

-أن بايات تونس على الرغم من تخوفاتهم في البداية، إلا أنهم قبلوا بالإصلاح في النهاية، على سبيل المجاملة للدولة العثمانية والدول الأوروبية.

-أن الإصلاحات على النمط الأوروبي دليل على الفشل السياسي الداخلي في الدولة العثمانية، والمناطق التابعة لها.

---

[31] ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج5،111

[32] المصدر نفسه، ج.5، 116

[33] المصدر نفسه، ج6، ص.21

-بروز النخبة المتأثرة بالغرب في تونس كان في وقت مبكر قبل الاستعمار، وساهمت النخبة في تطبيق الإصلاحات.

- فشل عهد الأمان دليل على عدم مواءمته للمجتمع التونسي، وجاء لخدمة المشروع الاستعماري.

-لاتكفي القوانين المجردة للإصلاح بل لابد من الإرادة لتطبيقها بالتساوي على الجميع.

- يعد كتاب الإتحاف لابن أبي الضياف من أهم المصادر تاريخ الإصلاحات في تونس.

قائمة المصادر المراجع:

- التونسي (خير الدين)، **أقوم المسالك في أحوال الممالك**، ج1، تحقيق: المنصف الشنوفي، بيت الحكمة، تونس، 2013

- ابن أبي الضياف (أحمد)، **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، منشورات زخارف، تونس، 2016

- فريد بك المحامي (محمد)، **الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، ط.1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1981.

- البستاني (سليمان)، **عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده**، تحقيق: خالد زيادة، ط.1، دار الطليعة بيروت، لبنان، 1978.

- أوغلى (إكمال الدين إحسان) وآخرون، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ج.1، تر: صالح سعداوي، مركز الأبحاث والفنون والثقافة، إستانبول، 1999.

- الذوادي (زهير)، **تناقضات المشروع الإصلاحي لدي بيرم الخامس**، الأطلسية للنشر، تونس، د.ت

- عبد (نادية ياسين)، **الاتحاديون، دراسة تأريخيه في جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية "أواخر القرن التاسع عشر-1908"**، ط.1، دار عدنان، بغداد، العراق، 2014

- العزاوي (قيس جواد)، **الدولة العثمانية، قراءة جديدة في عوامل الانحطاط**، ط.2، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2003.

المحجوبي (علي)، **العالم العربي المعاصر**، تخلف فاستعمار فمقاومة، ط.1، الانتشار العربي، لبنان، دار محمد علي، تونس، 2009.

- المحجوبي (علي)، **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر، لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان**؟، سراس للنشر، تونس، 1999،

- هنية (عبد الحميد)، **تونس العثمانية بناء الدولة والمجال**، دار أوتار، تبر الزمان، تونس، 2016.

- الشنوفي (المنصف) ، "رسالة ابن أبي الضياف في المرأة"،**حوليات الجامعة التونسية**، ع.5، 1968

عبد السلام (أحمد)، "تجاوب رجال الإصلاح في تونس مع الأحداث التركية في بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر"، **الحياة الثقافية**، ع.15/14، ماي/جوان، 1981. تونس

B.Tlili, ***Nationalisme, Socialisme , et Syndicalisme dans le Maghreb des années 1919-1934 ,Fondement et positions des réformismes,*** publications de l'université de Tunis, 1984, T.1

Abstract:

Pilgrimage is an important pillar of Islam. For this reason, the Muslims and their rulers took care of Hajj since the dawn of Islam. They took care of drilling wells and springs in the roads leading to the Hijaz country, and spent much money to prepare these roads with all the necessities of the journey and places to stay and provide security. The people of the Mid Maghreb, like other Maghribins, knew through their long Islamic history their keenness to perform the Hajj, and the annual occasion of their opportunity to meet and communicate with their Muslim brothers, as well as the pilgrimage back and forth was interspersed with scientific meetings between the scholars of the elders and students .

keywords: Pilgrimage, Mid Maghreb riding, tract, roads, the two Holy Mosques.

مقدمة:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام حيث يقول الله تعالى"ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا" [34]، وقد عرف المغرب منذ الفتح رحلات حج متنوعة ومختلفة لكن كانت بمبادرات شخصية، ولعل أقدم ما بلغنا من صدى عن هذا الركب يرجع إلى أواسط العهد الموحدي، ولكثرة ما تملك المغاربة من هيام بتلك البقاع تعددت الركاب المغربية، وهكذا فبعد (الركب الصالحي) من أسفي، تكوّن "الركب الفاسي" والركب"الزياني" ثم الركب السجلماسي والمراكشي والشنقيطي.

وعُرف أهل المغرب الأوسط كغيرهم من المغاربة عبر تاريخهم الاسلامي الطويل بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج باعتبارها ركنا من أركان الاسلام أولا، وما سنحت لهم به هذه المناسبة السنوية من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين من أقطار المسلمين من أقطار الاسلام الأخرى، فضلا عن أن رحلة الحج ذهابا وإيابا كانت تتخللها لقاءات علمية بين أهل العلم من شيوخ وطلبة[35].

وكان المغرب الأوسط"الجزائر" همزة وصل بين الأندلس و المشرق،كما كان المغاربة في مقدمة الشعوب المحبة للرحلات و الإطلاع إلى أحوال الأمم، وكان للدين الإسلامي الفضل الأكبر في غرس الرحلة في نفوسهم بالذهاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وطلب العلم و التجارة[36] ثم إلى الشام لزيارة الأماكن المقدسة.

---

34) سورة آل عمران الآية97.

35) محمد بن معمر: رحلات الحج من المغرب الاوسط الى مكة المكرمة خلال العصر الوسيط، مجلة الحضارة الاسلامية، معهد الحضارة الإسلامية وهران، المجلد 18، العدد1، ربيع الثاني1439هـ/ديسمبر2017، ص278.

36) عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في الفرنين7ه و8 ه، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص77.

ومن هنا يمكننا طرح إشكالية رئيسية **ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين، بين الجهود الشخصية ومساهمات الدولة .**

أهمية الدراسة : 1- إبراز دور الحجاج الجزائريين في تثبيت الركن الخامس في صفوف الشعب

2-إظهار الدور الحضاري الثقافي للركب الزياني.

3- تتبع أهم المسالك والطرق التي يتبعها حجاج الجزائر للوصول الى البيت الشريف

المنهج المتبع: ان طبيعة الموضوع تتطلب استخدام المنهج التاريخي من خلال سرد بعض الاحداث التاريخية، والمنهج الوصفي لتتبع سير الرحلات الحجية.

أولا:موكب الحج في المغرب الاوسط جذور واستمرا.

الحج في الاسلام هو فرض عين وجبت تأديته على جميع المسلمين، مما أضفى عليه أهمية وشهرة واسعة في كامل البلاد الاسلامية والمغرب الاسلامي أكيد هو جزء منه، واعتاد أهل الغرب الاسلامي تأديته في موكب جماعي ظل يعرف إلى عهد قريب بركب الحاج المغربي، والذي كان يشكل الاطار الامثل والوسيلة الانجع لتمكين أكبر عدد ممكن من أهل المغرب من أداء مناسكه[37].

37) دعاء عبد الرحمن علي: ركب الحاج المغربي وأثره على الاوضاع الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي "الأسواق أنوذجا" مجلة الانسان والمجال، معهد العلوم الانسانية والاجتماعية، المركز الجامعي ، البيض، الجزائر، العدد 5، أفريل 2017، ص7.

ومن الدلائل على وجود قوافل الحج المنطلقة من أنحاء المغرب الاسلامي إلى مكة أشار ناصر خسرو إلى قافلة عظيمة أتت من بلاد المغرب سنة440هـ/1048م وتعرضها للمخاطر في المدينة المنورة[38].

وهذا يدل على أن قوافل الحج كانت موجودة ولها أوقات محددة للانطلاق من أنحاء المغرب كلها لتصل الى مكة في الوقت المناسب، إلا أن تلك القوافل لم تكن تخرج مع أمير للحج يتولى أمرها، ويعود السبب في ذلك إلى كثرة القوى السياسية التي تحكم المناطق من المغرب الاسلامي، وأن خروج أمير حج رسمي يمثل إحدى تلك القوى سيعرضه والحجاج الذين معه إلى المخاطر من قبل القوى الأخرى، لذلك كانت رحلات الحج المغربية الى مكة رحلات شخصية وتخرج بجهود شخصية[39].

وخير مثال على ذلك العداء السياسي بين العباسيين والاباضيين في المغرب الاوسط، لهذا أحجم الامام عبد الوهاب بن رستم(171-211هـ/787-826م) عن أداء فريضة الحج خشية الوقوع في يد العباسيين ودعم ذلك بفتوى من فقهائهم، بسقوط الحج لعدم الامان[40]، ولما استقرت الامور لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فاستخلف ابنه أفلح، واصطحب زوجته وجمع كبير من رجاله وسلك عبد الوهاب الطريق الصحراوية المارة بقسطيلية وجبل دمر جنوب قابس، وصولا الى جبل نفوسة[41].

كما تذكر المصادر الاباضية أن الامام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب(208-258هـ) طلب منه ابنه أبو اليقضان محمد الاذن له بالحج، فسمح له بالخروج مع ركب من الحجاج

---

38) سفر نامة، رحلة ناصر خسرو الى لبنان وفلسطين والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلـــه الى العربية يحي الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص112.

39) وجدان فريق عناد: صور من حج الزعماء والحكام في المغرب العربي الاسلامي حتى نهاية عصر الموحدين، المجلة الدولية للبحوث والدراسات الانسانية، العدد2، المجلد2، ديسمبر2016، ص77.

40) عبد الرزاق محمود اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافـــة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1985، ص186.

41) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير في العصر الاسلامي، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، الدار القومية للطباعة والنشر، الاسكندرية، ص237.

الاباضيين الذين وردوا مكة سنة 238هـ، فاكتشف أمره بني العباس السنيين فأسروه[42]، حيث أمر الخليفة العباسي الواثق بحبس أبي اليقظان، وفي السجن التقى أبو اليقظان بالمتوكل أخ الخليفة الواثق فأصبح صديقا حميما له، وسيصبح لهذه الصداقة أثرها في حياة أبي اليقضان بعد ذلك[43] ولما علم أفلح بما حدث لولده أبي اليقظان اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محزونا إلى أن وافته المنية سنة 240هـ/ 854م[44].

وتسبق موكب أو ركب الحج مظاهر من الاستعداد والاهتمام حيث تمدنا المصادر بمعلومات وان كانت قليلة عن هذا الاستعداد حيث تخرج أطلاب السلطان من كل أرجاء البلاد وفيها الخيل والهجن، وتصنع القدور وتحمل على الجمال ليطبخ فيها

وعرف ركب الحج تطورا خلال العهد الموحدي من حيث التنظيم والاستمرارية، إذ تأسس أول ركب حج مغربي بالمعنى الحجقيقي وهو الركب الصالحي، على يد أحد أعلامهم وهو الشيخ الامام الداعية أبي محمد صالح الماجري المتوفي631هـ وقد ظل هذا الركب ملتزما في هابه وأيابه بنفس الطريق مرورا بالمغرب الاوسط[45].

واقترن تنظيم أول ركب رسمي في هذا العصر بالتوسع المريني في أراضي المغرب الاوسط الذي قام به السلطان أبو يعقوب يوسف الناصر(685-706هـ) حين حاصر تلمسان مدة ثماني سنوات ابتداء من سنة 698هـ/1299، وبما أن هذا الركب أول ما بعثه المرينيون فقد

---

42) ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1986، ص64.

43) الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب ، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاي ، مطبعة البعث ، قسنطينة، بدون سنة، ج1، ص26.

44) الباروني : الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، تحقيق وفهرسة أحمد كروم عمر بازين ، مصطفى ابن ديسو، تقديم إبراهيم بن بكير بحاز أحمد بن سعود السيابي ، الطبعة الثانية 1423 / 2002 ،ج2، ص221 .

45) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص280.

كان يكتسي أهمية خاصة، ونظمه السلطان يوسف أحسن تنظيم وأمر باستنساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه أحمد بن حسن البلياني التلمساني[46].

وفي هذا يقول ابن خلدون" لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم. ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفن إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول. فسما للسلطان في ذلك أمل ودخله بحرم الله وروضة نبيه الشوق، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة كتبه ونفقه أحمد بن حسن الكاتب المحسن. واستوسع في جرمه وجعل غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت"[47].

كما أشار محمد المنوني إلى وثيقة معاصرة وهي رسالة صادرة عن السلطان يوسف المريني إلى كبير أشراف آل أمغار بالمغرب الاوسط يلتمس فيها تعيين ثلاثة رجال منهم ليتوجهوا إلى بلاد الحرمين الشريفين، لحمل المصحف وكسوة الكعبة وهي مؤرخة في 11 صفر703هـ/1303م[48]، وانطلق الركب من مدينة تلمسان في شهر ربيع الأول من سنة 703هـ/1303م، وعاد هذا الركب الى تلمسان في ربيع الثاني سنة 704هـ/1304م[49].

وفي شهر ربيع الأول من السنة الموالية وهي سنة704هـ، جهز السلطان يوسف ركبا رسميا آخر من تلمسان جعل إمارته لعلاء الدين أيدغدي[50]، وبعد استرجاع بني عبد الواد

---

46) كان قاضي للجماعة وتولى خطة شهداء بيت المال وأشرف على خطط العدالة وهي الشهادة على الداخل والخارج. **ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيقيرا، الجزائر، تقديم محمد بوعياد، المكتبة الوطنية الجزائرية، 1981، ص313.**

47) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، ضبط خليل شحادة، وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج7، ص298-299.

48) محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1996، ص173.

49) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص283.

50) ابن خلدون: العبر، ج5، ص481-482.

سيادتهم نظموا ركب الحج الخاص بهم من تلمسان في شهر بيع الاول سنة 724هـ/1324م وترأسه الامير أبو زكريا يحي بن عمر بن جرار العبد الوادي[51]، وكان ضمن الركب ابن مرزوق الوالد[52].

ويقول ابن مرزوق عن السلطان ابي الحسن المريني أنه كان يعمل على تمهيد السبيل لحجاج بيت الله، وكان دأبه المعونة على الوجهة لهذا العمل، ويجهز الركوبات دائما من المغرب، ولما نزل تلمسان وحاصرها كان أعظم ما نقم على صاحبها تعرضه للمتوجهين من المغرب برسم الحج، ولما فتحها صار يعين في كل سنة ركبا متوجها الى الحج[53].

كما هيأ هذا السلطان ركب للحجيج يوم 25 ربيع الأول سنة738هـ/1338م ينطلق من مدينة تلمسان تحت قيادة أبو سعيد عثمان بن يحي بن محمد بن جرار التلمساني، وقد استقبل هذا الوفد في القاهرة استقبالا كبيرا[54].

ثانيا: مسالك الحجاج في المغرب الاوسط من خلال نماذج من رحلات حجية شهيرة

لا يمكن الحديث عن بداية الحج في المغرب الأوسط الجزائر" بمعزل عن بلاد المغرب الإسلامي بسبب الترابط الجغرافي واللحمة الاجتماعية، والتكامل في الطرق والمسالك[55].

---

51) ابن خلدون: العبر، ج7، ص152-153.

52) ابن مرزوق الخطيب التلمساني: المناقب، تحقيق سلوى الزهاري، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، 2008، ص301.

هو أبو العباس أحمد ابن مرزوق(681-741ه/1282-1340م) قدم جده من مراكش المحروسة وكان صاحب مال وثرة ثم استوطن تلمسان ومارس مهنة الحاكة، وقد حج سنة 724هـ وسنة 735ه. **ابن مرزوق: المناقب، ص188-272**.

53) ابن مرزوق الخطيب: المسند، ص385؛ **ومحمد بن معمر: المرجع السابق، ص288**.

54) المقري: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج4، ص401-404.

55) محمد بن معمر، المرجع السابق، ص278.

والطرق التي يسلكها الحجاج المغاربة للوصول إلى مكة المكرمة عدة طرق منها الثابت والمتغير، وتبين من خلال الرحلات أن الطريق لم يكن نفسه، وإنما تعدد بين الطريق البحري بركوب البحر الأبيض المتوسط إلى غاية الاسكندرية مرورا بأراضي مصر فالبحر الأحمر في حين أغلب المغاربة اعتمدوا المسلك البري، الذي تنوع هو الآخر بين المناطق الداخلية والطريق الصحراوي، ويتحكم في ذلك مجموعة من الاسباب منا الظروف السياسية والأمنية والاقتصادية[56].

أ) الطريق البري:

مثلته عدة رحلات حجية مختلفة من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب من خلال خط العودة، وكان هذا الطريق أكثرها انتشارا وشيوعا لكونه لا يتطلب امكانيات كبيرة، رغم ما يكتسيه من اخطار طبيعية وسياسية و اجتماعية متعددة، ومن الرحلات البرية المهمة رحلة العبدري.

لقد انطلقت رحلة العبدري في25ذي القعدة عام 688هـ/11ديسمبر1289م[57] وكان الانطلاق من مدينة حاحة[58] المغربية[59].هذه الرحلة سماها"ما سمى إليه الناظر المطرق إلى

56) فوزية كراز: مسالك الحجاج المغاربة من خلال بعض الرحلات المغربية الرحلات الحجازية، مؤتمر طرق الحج في إفريقيا، مركز البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة إفريقيا العالمية، 2016، ص1.

57) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1983، ج6، ص401.

58)**حاحة**: هي إقليم يحده من الغرب والشمال المحيط الأطلسي، ومن الجنوب جبال الأطلس ومن الشرق نهر أسيف نوال، ويشتمل على مدن كثيرة **أنظر الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، و محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983، ، ج1، ص95**.

59) العبدري: الرحلة المغربية، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، ط2، 2005، ، ص40.

بلاد المشرق"ويسميها البعض ب"ملء العيبة فيما اجتمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة"[60]، وتعرف عادة بالرحلة المغربية.

وكان وراء رحلة العبدري سببان حملاه على المضي فيها، أولها:سبب ديني وهو القيام بفريضة الحج والاتصال بالمتصوفة والصالحين، وقد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوي الإقامة بمكة والمجاورة بها.

وسبب ثانٍ هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وكان العبدري حريصا على البحث عن السند العالي، فيما أخذه عن هؤلاء العلماء والمحدثين، وكان العبدري في سؤال دائم عن الأحوال العلمية والثقافية في البلاد التي مربها.

أما بخصوص المناطق التي اجتازها في المغرب الأوسط فقد بدأها بالمفازة[61] التي في طريق تلمسان، حيث كانت طرقا مقطوعة بسبب قطاع الطرق من الأعراب، وقد اجتازها بفضل مساعدة رجال مسلحين عارفين بالطرق[62]، وهو ما يبين لنا الأوضاع المتردية خلال فترته من انتشار اللصوصية وقطاع الطرق، كما يبين العدد الكبير من الحجاج وهو ألف أنه ركب منظم لكنه غير رسمي، وأن تلمسان كانت محطة رئيسية لقوافل الحج المرتحلة من الجهات الغربية لبلاد المغرب الاسلامي[63].

ثم وصل إلى **تلمسان**، فوجدها بلداً حلت به زمانة(الآفة)، وقد شاهد جمعا من الحجاج ينيفون على الألف وردوها ووقفوا إلى أميرها الزياني أبي سعيد عثمان(681-

60) عمر فروخ: تاريخ الأدب، ج6، ص402.

61) المفازة: البرية المقفرة المهلكة وسميت بذلك تفاؤلا من الفوز والنجاة. **إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة، إستنبول ,الطبعة الثانية، 1989م، ج3، ص184**.

62) العبدري: المصدر السابق، ص45.

63) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص281.

703هـ)[64]، فأعطاهم دينارا واحدا فقط[65]، وهو دليل على انتشار الفقر وضعف اقتصاد الدولة الزيانية مما منع الملك من العطاء والكرم على حجاج بيت الله الحرام، كما نستشف من كلامه رواج التجارة بين فاس وتلمسان في الطريق البري الذي سلكه العبدري: فاس-وجدة-تلمسان، كما يبين لنا قوله:"وكنت حين وردتها قد أقمت بها مدة منتظرا للركب"[66] أي ركب الحجاج وهو ما يعرف بطريق الحج البري من بلاد المغرب الأقصى إلى البقاع المقدسة.

وعند وصول الركب، سار معهم قاصدا مدينة **مليانة** الخصيبة كما يصفها والتي تشرف من كثب على واد الشلف[67]، وقد كان تنقلهم برا عبر هذه الطريق، حيث تعتبر مليانة من المدن المهمة تجاريا، ومسلكيا، بفضل موقعها إذ يمر عليها المتوجه إلى الجزائر برا أو المتوجه نحو البحر في اتجاه كل من تنس وشرشال.

واصل السير منها إلى **مدينة الجزائر**، وهي مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر، قد حازت مزيتي البر والبحر وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق وسور معجز وثيق وأبواب محكمة العمل[68].

وهو ما يبين بداية بروز مدينة الجزائر على الساحة المحلية والعالمية، بدل العواصم التقليدية كتلمسان وبجاية، كما يبين لنا التحصنات المحكمة لها مما يبين وجود خطر دائم يداهمها من البحر، سواء من الدول أو القرصنة البحرية.

---

64) ملك الدولة الزيانية في هاته الفترة هو أبو سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان ملك تلمسان بين سنة681-703هـ.**عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للنشر والطباعة، الجزائر، 2011، ج2، ص73.**

65) العبدري: المصدر نفسه، ص47-48.

66) نفسه، ص54.

67) نفسه، ص78.

68) العبدري: المصدر السابق، ص82.

لينتقل برا دائما إلى **مدينة بجاية**، وهي مدينة حصينة كبيرة مشهورة برية وبحرية، وثيقة البنيان عجيبة الإتقان، رفيعة المباني، موضوعة في سفح جبل وعر، مقطوعة بنهر، متحصنة بهما منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب ولا متسع بها لطاعن وضارب[69]، ونفس الشيء يقال عن بجاية حيث لم يقدم لنا العبدري سوى وصف بسيط عن حصانتها وبأنها بحرية وبرية[70]، ولم يشر إلى النشاطات الاقتصادية الممارسة فيها، بل ركز على الجانب الثقافي، مما يجعل الرحلة قليلة الأهمية لوصف المناطق الساحلية، باستثناء ما تبرزه في بعض الحالات من مسالك برية وبحرية وكذا حصانة المدن ومنعتها أو وجود الخطر سواء من القرصنة أو الأعراب.

ثم تنقل من بجاية إلى **بني ورار** ثم إلى **ميلة**، مارا عليها مرور الكرام ويشير إلى بيئتها وطبيعتها، سوى ذكر إحدى عيونها الجارية[71]، مارا في حديثه نحو **مدينة قسنطينة**، التي وصفها بالمدينة العجيبة الحصينة، التي دار بها واد شديد الوعر بعيد القعر كما يحيط السوار بالمعصم ومنعها[72]، ورغم قلة كلامه عن قسنطينة إلا أن مكانة قسنطينة بدأت في البروز كإحدى المدن الكبرى في الدولة الحفصية بل هي العاصمة الثالثة بعد تونس وبجاية.

ورغم تركيز العبدري على الجانب الثقافي إلا أنه ذكر لنا الفقيه الإمام أبا الحسن اللخمي[73]، وفتواه في حكم السفر إلى الحج مع فساد الطريق، وهل الأوْلى تركه احتياطا على

---

69) نفسه، ص82-83.

70) وهو كلام ذكره قبله الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1989 ، ج1، ص259.

71) العبدري: المصدر نفسه، ص93.

72) نفسه، ص93-94.

73) هو علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي، فقيه مالكي قيرواني الأصل سكن سفاكس، وتوفي بها سنة478هـ، له مصنفات منها التبصرة وهو تعليق على المدونة في فقه المالكية.**ابن فرحون: الديباج**

النفس أو الاستسلام في التوجه إليه[74]، واستحضار لهذه الفتوى في قسنطينة يبين فساد الطريق والخطر المهدد للحجاج خاصة من قطاع الطرق والأعراب، بسبب ضعف السلطة المركزية في كل من فاس وتلمسان وتونس.

ونلاحظ أن خط سير العبدري، كان نفسه خط سير ابن الفكون[75] سابقه في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، ويتضح ذلك من خلال قصيدته التي لخصت الرحلة[76]، ولهذا لم يذكر العبدري بعض المدن التي مر بها مابين تلمسان ومليانة، وما بين الجزائر وبجاية وما بين

المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص298.

74) العبدري: المصدر السابق، ص96.

75) **الفكون** هو الأديب والشاعر أبو علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون" أو البكور"، رحل من قسنطينة إلى مراكش ومدح خليفة بني عبد المؤمن.**ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، والمكتبة العتيقة، تونس، ط1، 1971، ج1، ص236.**

76) القصيدة طويلة وذكرها المقري في ن**فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط1، 1997، ج2، ص 283-284.** ومما جاء فيها:

فلما جئت ميلة خير دار ... أمالتني بكل رشا أبي

وكم أورت ظباء بني ورار ... أوار الشوق بالريق الشهي

وجئت بجاية فجلت بدورا ... يضيق بوصفها حرف الروي

وفي أرض الجزائر هام قلبي ... بمعسول المراشف كوثري

وفي مليانة قد ذبت شوقا ... بلين العطف والقلب القسي

وفي تنس نسيت جميل صبري ... وهمت بكل ذي وجه وضي

وفي مازونة مازلت صبا ... بوسنان المحاجر لوذعي

وفي وهران قد أمسيت رهنا ... لظامي الخصر ذي ردف روي

وأبدت لي تلمسان بدورا ... جلبن الشوق للقلب الخلي.

بجاية وقسنطينة، بل ذكر مناطق أقل شهرة كمنطقة بني ورار، حتى يمثل نفس رحلة ابن الفكون.

ثم واصل العبدري السير من قسنطينة نحو **مدينة بونة**، التي قال عنها:"تغار لها العيون من جور النوائب ممتدة وتراعي من البحر جزره ومده، ومن المشاهدات التي رآها مصادفته زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا، وقد حاصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج، وأسروا من البر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد، وتركناهم ناظرين في فدائهم"[77]، وهذه شهادة حية من العبدري للخزي الذي بلغه المغرب الإسلامي في تلك الفترة والدرجة الكبيرة من الضعف أمام القراصنة الغربيين.

أما خلال طريق العودة مرَّ على باجة ثم على خولان[78] ثم نحو **مدينة بجاية**، وأخذ طريق

---

77) العبدري: المصدر نفسه، ص104.

لقد تحدث أحمد البوني في القسم الخامس عشر من كتابه عن هجومات النصارى التي تحدث عنها العبدري فقال:"فإني قلت كم هجمت النصارى على بلدكم العناب، قلت: فيما أعلم أربع مرات أولاهن قريبة من زمن الشيخ الهواري، وقد كان في السادسة من عمره- لعله يشير إلى هجوم بيزة أعقبه احتلال المدينة سنة 426هـ/1034م- والثانية في حياة ابن عبد الجليل المذكور-هي حملة قامت بها فلنسية وميورقة سنة 801هـ/1399 م وباءت بالفشل الذريع، والثالثة عام982هـ/1574م والرابعة سنة 1016هـ/1607م. **أحمد بن قاسم البوني: التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تقديم سعيد دحماني، منشورات المجلس الشعبي البلدي، عنابة، الجزائر، ط1، 2001، ص76، و الهامش84.**

78) خولان بلدة صغيرة تقع غرب باجة على ضفاف واد كساب الذي يصب في واد مجردة وتقريبا في الموضع الحالي سوق الأربعاء بمحافظة جندوبة.**مراد عرعار: مقاربة حول طريق القلاع للعبدري، ضمن أعمال ندوة دولية شبكة الطرقات والمسالك ببلاد المغرب القديم والوسيط، سو60سة، من 6-8- أفريل2015، نشر مخبر البحث"اشتغال الأرض، التعمير وأنماط العيش في بلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، ص78.**

القلاع[79]، حيث يقول:وأخذنا طريق القلاع فدخلناها قلعة قلعة، وهي ذوات عدد، ثم على **قسنطينة** على الطريق الأول ثم على **بجاية**[80]، أي أن العبدري لم يسر على نفس طريق العودة بسبب استيلاء النصارى على بونة بل سلك طريقاً من القلاع تربط بين خولان إلى بجاية.

ثم سافر من بجاية فمرَّ على قرية ملالة وهي بالقرب منها، ومنها إلى **مليانة**، ومنها جهة اليمين نحو **مازونة** التي لم يمر عليها في طريق الذهاب، وصولا إلى مدينة **وهران**، التي قال عنها مدينة مليحة حصينة برية وبحرية، وهي مرسى تلمسان وأنظارها ومتجر تلك النواحي[81]، ونلاحظ أن العبدري خلال مرحلة العودة ذكر مدناً لم يذكرها في طريق الذهاب وهي مازونة ووهران مما يبين تغييره لطريق العودة أو أنه خلال الذهاب لم يعرها اهتماماً، كما يتبين لنا أن وهران خلال هذه الفترة لم تكن لها أهمية لأنها ميناء تابع لتلمسان لتصريف منتجاته، وممارسته للتجارة.

ثم من وهران توجه نحو **تلمسان**، وصادف قافلة كبيرة تزيد عن الألف خارجة منها نحو وجدة فقفل راجعا معهم[82]، وهذا يبين استمرار الطريق البري رغم المخاطر.

أما عن **رحلة ابن مرزوق الخطيب للحج سنة 724هـ**، فقد اقتصر على ذكر المحطات الكبرى فقط في مسار موكبهم الحجي، وهي بجاية وقسنطينة وتونس والاسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة[83].

---

79) طريق القلاع البزنطية يبدأ من خولان ثم إلى قلعة شقبنارية، ومنها إلى ساقية سيدي يوسف إلى سوق أهراس إلى تيفاش إلى خميسة، الى سلاوة عنونة إلى الهرية إلى قسنطينة إلى جيجل إلى بجاية. **مراد عرعار: المرجع نفسه، ص90-91**..

80) العبدري: المصدر السابق، ص558.

81) المصدر نفسه، ص561.

82) نفسه، ص563.

حيث يذكر بأن الركب انطلق من فاس، وضم فقهاء من فاس وطنجة، ووصل الركب الى تلمسان، أين صاحبهم الفقيه أبو عمرو ميمون بن يوسف بن عبد الرحمن بن زاع، وابن يحي أبو بكر بن عبد الواحد المقري صهر ابن مرزوق، ومن أهل مليانة الفقيه القاضي الصالح ابن زكرياء يحي بن محمد وميمون الفاروندي[84].

ثم دخل الركب بجاية المحروسة، ولقي بها مجموعة من العلماء ومنها نحو قسنطينة، ومنها الى تونس والاسكندرية والقاهرة ومنها الى مكة والمدينة[85]، أما عن خط العودة فكان سنة 729هـ/1329م عاد الى المغرب الاوسط"الجزائر" على بلاد الجريد جنوب تونس وصولا الى تلمسان[86].

كما يمكننا الاستفادة من رحلة **العياشي**[87] خاصة أثناء عودته حيث سلك الطريق الداخلي أو طريق الهضاب العليا ولم يسلك الطريق الصحراوي الذي قدم منه، حيث يبين لنا أنه وصل الى توزر ضحى يوم الأربعاء الواحد والعشرين من شعبان 1072هـ/ 1663م، ووجد بها حجاج من أهل تونس وجربة، والتقى فيها بصاحبه الحاج سيدي سحراوي وهو من

---

83) محمد بن معمر:المرجع السابق، ص285.

84) ابن مرزوق الخطيب التلمساني: المناقب، ص301.

85) نفسه، ص301-305.

86) نفسه، ص304.

87) هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي، ولد في 29 شعبان1037هـ/4ماي 1628 م ورحلته الثالثة المدونة والتي كانت سنة 1072هـ/1661م، وتوفي بالطاعون سنة 1090هـ/1679م . **العياشي: اقتفاء الاثر بعد ذهاب أهل الاثر، تحقيق نفيسة الذهبي، 1996مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ص21-69.**

ركب حجاج الجزائر[88]، وهذا يبين لنا أن لحجاج الجزائر "المغرب الاوسط" مشاركة هامة في ركب الحجاج في مختلف مسالكه.

ثم ارتحل من مدينة توزر يوم الاحد وبدأ الركب في المرور بمدينة نفطة بعدما كانوا عزموا على سلوك الطريق اليمنى على الحامة، وهي المعهودة للاركاب لاتصال عمرانها، ومنها وصلوا الى قرية الكلابية، أين وجدوا الجراد قد فعل فعلته، ومنها الى الرقيق وهي إحساء متعددة وماؤها صاف، ثم ارتحل الركب ونزل قرب الأعرج[89]، وهي كلها قرى في المغرب الاوسط "الجزائر"، حيث وصلوا الى مدينة الخنقة، وهي المعروفة الآن بخنقة سيدي ناجي.

ثم ارتحل الركب منها أول يوم من رمضان يوم السبت نحو زريبة الوادي ضحى، وهي نصف الطريق بين الزاب وسيدي عقبة[90]، وعند وصولهم لهذه الاخيرة وجدوها مملوءة بالوباء، مما جعل الحجاج يسارعون للخروج منها نحو بسكرة التي نزلوها ضحى يوم الاثنين وكان حالها كحال سيدي عقبة موبوءة مات على إثره نحو سبعين ألف نفس[91].

وكان ارتحال ركب الحجاج من بسكرة قاعدة بلاد الزاب يوم الخميس مارا بقرية أمليلي ثم بزاوية سيدي الشيخ عبد الرحمن الاخضري، ومنها الى بلدة تسمى لؤي ليصل الركب ظهرا الى المكان المسى بالدويسة "الدوسن حاليا" بينه وبين أولاد جلال نحو من فرسخ، وهناك أحاط بهم خطر الأعراب، مما جعلهم يعدلون يمينا في أرض وعرة نحو العوينة، ثم دماك، ثم

88) عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661-1663، تحقيق سعيد الفاضلي، وسليمان القريشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2006، ج2، ص535.

89) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج2، ص537.

90) المصدر نفسه، ج2، ص538.

91) العياشي: المصدر السابق، ج2، ص539-540.

أولاد سيدي مخلوف، وصولا الى الأغواط في السادس عشر من رمضان[92]، وارتحل الركب الى قرية الكراكدة، ثم بوسمغون ثم نحو مكناسة وفاس[93].

ب) الطريق الصحراوي:

يستخلص مسلك الحجاج في جهة الصحراء من عدة رحلات وتنقلات منها:

رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمن بن باعمر التنلاني(1189هـ) الذي اشتهر بين علماء عصره بكثرة رحلاته وتنقلاته طلبا للعلم أولا وزيارة للروضة الشريفة وأداء لمناسك الحج ثانيا وهو في كل هذا قد أرخ لنا لرحلات أربع[94].

وفي احدى رحلاته التي لا تزال مخطوطا دون رحلته الحجية التي جاءت تلبية لطلب أخويه في الله سيدي عومر بن سيدي عبد الرحمن، وابن عمه سيدي إدريس في أمر مرافقتهما الى الحج[95]، كان الانطلاق من قصر تنلان بعد صلاة الجمعة العاشر من شهر جمادي الثانية سنة 1188هـ، ثم نزل مدينة تمنطيط أصفرار وأقام بها يوم السبت ومنها نحو زاوية الجديد ثم زاوية الرقاد وباتا فيها ومنها نحو قرية بوعلي وزار بها قبر الولي الصالح العلامة سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، ورحل منها الركب يوم الاربعاء متوجهين لبلاد تدكلت، ثم واصلوا السير الى قرية تمقطن، ثم رحل زاوية أبي الانوار، و أقام بها ثلاث أيام، ثم رحل منها الى لأولف الأشراف ثم لزاوية تقرافت، ثم الى أولاد موسى، ومنها الى زاوية أبي نعامة، والذي أحيا سنة الحج من بلاد توات والتكرور، ومن هذه الزاوية وصولا الى عين صالح

92) المصدر نفسه، ج2، ص542-546.

93) نفسه، ج2، ص550-551.

94) محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني، ص58 وما بعدها.

95) أحمد أبا الصافي جعفري: من تاريخ توات، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2011، ص456.

واستمرت الرحلة في الأودية والصحاري الجزائرية والليبية الى أن وصلوا نهر النيل والقاهرة[96].

كما برز طريق طريق بسكرة –جاو:يربط طريق بسكرة بورقلة منها إلى عاصمة سنغاي جاو، مرورا بتوات[97]. وتاغزة ثم تادمكة، و منها إلى جاو وهذا الطريق يذكره المؤرخون على أنه طريق ذو أهمية كبيرة غير أن إبن حوقل يقلل من قيمته، وطريق القيروان –توات سجلماسة[98]:هناك طريق آخر يربط تيهرت بالقيروان عبر مدينة ورقلة، فتخرج القافلة من تيهرت إلى ورقلة ثم إلى بسكرة إلى القيروان ،رغم إهمال الرحالة العرب له في مؤلفاتهم،إلا أنه كان مستعملا[99].

ونطرا لما اشتهرت به أسواق توات من رخص وتنوع السلع وانتظام خروج ودخول القوافل تحولت إلى سوق تجارية مربحة بعد أن كانت نقطة عبور في الصحراء[100] ، يقصدها التجار من كل حدب وصوب، وقد جذبت أيضا قوافل الحجاج العابرة للصحراء في طريقها

---

96) أحمد أبا الصافي جعفري: المرجع السابق، ص458-460.

97) **توات:** مدينة جنوبية في المغرب الاوسط اسمها ربطه المؤرخ السوداني السعدي بمرض سلطان مالي كنكاي موسى حيث أصيب بمرض في رجله أثناء مروره بالمنطقة وهو في طريقه الى البقاع المقدسة فيقي اسم المرض يميز المكان.**عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس، 1981، ص21**، وهناك من يرجع اسمها الى كلمة أعجمية أطلقتها قبائل لمتونة على هذا الاقليم عند لجوئها في منتصف القرن السادس الهجري.**فرج محمود: تاريخ توات خلال القرن 18 و 19، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، ص2.**

98) **سجلماسة:** من أعظم مدن المغرب وهي على طرف الصحراء بينها وبين غانة مسيرة شهرين أسست سنة 140 هـوهي مقصد للذاهب والوارد ولها إثنا عشر بابا . **الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق إحسان عباس، مطبعة هيدلبرغ، بيروت، ط2، 1984، ص305-306.**

99) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992، ،ص90-91.

100) جعفري مبارك بن صافي: من تاريخ توات أبحاث في الت ا رث، ط5 ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2009، ص 121

إلى الأراضي الحجازية حيث كانت هذه القوافل تنطلق من مدن سجلماسة وتافيلالت وشنقيط كل عام وتسلك أثناء سيرها نحو الشرق الطريق المار داخل إقليم توات[101].

إضافة الى رحلة **العياشي**، الذي انطلق من بلدته وصولا الى سجلماسة يوم الخميس أول ربيع الثاني سنة 1072هـ/1661م للالتحاق بركب الحج المتوجه الى بلاد الحجاز[102]، وكان رئيس الركب هو سيدي محمد بن الولى الصالح سيدي محمد الحفيان[103].

وعند وصوله الى سجلماسة يعطينا العياشي صورة عن وسائل النقل والركوب للحج متمثلا في الخيل، والعلف الخاص بهم حيث يذكر" وكنا قدمنا معنا بثلاثة من الخيل واشتريت آخر بسجلماسة وأعطيت أفضلها لأمير الركب، واستصحبت الثلاثة الباقية إلى توات، وكتب الأمير أيده الله إلى عكاله فيما استقبلنا من البلاد أن يمدونا بالمحتاج من علف إلى توات"[104].

وقد مر الركب بعدة قرى بين سجلماسة وتوات منها قرية أجلى وهي أول قرى وادي الساورة[105]، ثم قرية مازر ثم قرى بني عباس[106]، ثم وصلوا الى قرية يقال لها بشير، ثم قرية

101.عباس عبدالله: الدور الحضاري لإقليم توات،الملتقى الوطني الأول حول .العلاقات الحضارية بين توات و المغرب الإسلامي، أدرار، 2009، ص 538

102) عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، ج1، ص39، 67.

103) المصدر نفسه، ج1، ص72.

104) العياشي: المصدر السابق، ج1، ص74.

105) الساورة هي منطقة في الجنوب الغربي الجزائري، تضم حاليا ولاية بشار وأدرار وتندوف .أخذ الاقليم اسمه من الوادي الذي يخترقه من الشمال الى الجنوب ومنبعه جبال الاطلس الكبير طوله1200 كلم.**فوزية كراز: المرجع السابق، ص15.**

106) وهي ثلاث قرى متصلة في جبل صغير على شفير وادي الساورة فيها نخل كثير وفاكهة وبساتين وفيها ساقية من الماء الجاري العذب. **عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص76؛ الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ج4، ص271.**

أخرى يقال لها بني خلف، وترك الركب قرى أولاد رافع عن يسارهم ثم قطع الحمادة وصولا الى قرى تسابت وهي أول عمالة توات[107]، وكلها قرى موجودة في المغرب الاوسط اعتاد ركب الحجاج السير عبرها.

ويقول العياشي ثم ارتحلنا من توات بعدما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها يوم الخميس السابع من جمادى الأول وخلفنا قرى توات وراءنا وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد أوكرت[108]، ونزل بقرى الدغامشة[109]، وهذا يبين أن ساكنة المغرب الاوسط شغوفة بالحج والتوجه الى الحرمين الشريفين من خلال قدومهم من كل القرى جماعات وفرادى تجمعهم الرغبة في زيارة بين الله الحرام رغم المخاطر التي تحيط بهم الطبيعية والبشرية.

وكان رحيل ركب الحج من أوكرت صبيحة يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الاولى قاصدا واركلا[110]، حيث خرج معهم جملة من أهلها قاصدين للحج وسلكوا طريق وادي إيمكيدن، مع دليل من عرب الخنافسة لمعرفته بالطريق ومواطن المياه[111].

---

107) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص78-79.

108) المصدر نفسه، ج1، ص80.

أوكرت :من القرى الكبيرة الواقعة في آخر بلاد توات.**ابن المليح: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب الى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، فاس، 1968، ص30**، وهي آخر البلاد التي هي تحت طاعة الشريف صاحب سجلماسة . **عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص107**.

109) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص80.

الدغامشة :ضبطها ابن المليح بالعين وسما ها الصغير الافراني في الصفوة الدغامسة وهي قرى كثيرة بقرب بلاد توات. **أنس الساري والسارب، ص30؛ و صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2004، ص169**.

110) واركلا: مدينة في طرف الصحراء مما يلي إفريقية بينها وبين القيروان 31 يوم وهي محط القوافل التجارية .**الحميري: المصدر السابق، ص600**.

ثم واصل الركب طريقه من قرية والا ونزل ضحى بينها وبين القليعة[112]، وهي في طاعة سلطان واركلا وتعرف ببلدة سيدي الشيخ وأولاده حتى الآن يدعون أولاد سيدي الشيخ، وهو ولي صالح ثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين[113]، وكلام العياشي يؤكد استمرار الرحلات الحجية من المغرب الاوسط الى الحجاز عبر مختلف العصور و الفترات التاريخية.

ثم ارتحل من واركلا يوم الاثنين ونزل ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى مكوسا وهم في طاعة وادي ريغ، ثم واصلوا الطريق الى وادي ريغ في طريق ذات رمال لا يهتدى فيها إلا من مارسها كثيرا، وقد مر الركب ببلدة يقال لها أكرك وهي أول بلد وادي ريغ، ثم بلدة تماسن وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل وأميرها ابن عم أمراء تكرت وهو كالمستقل في بلده وأجزل ضيافة الحجاج[114].

ومنها إلى توكرت[115] قاعدة وادي ريغ، وكان ذلك يوم السبت 14 جمادى الثانية، ونزلوا بباب المدينة المسمى باب السلطان، وصادف دخولهم اليها دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وابل وزرع[116].

ومنها إلى سوف أو وادي سوف، حيث خرج الركب من تكرت يوم الاربعاء 18 جمادى الثانية، في بلاد ذات رمال كثيرة، وخط من النخل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على

---

111) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص107.

112) القليعة تصغير قلعة وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه وبها آبار كثيرة طيبة الماء ونخيل ليس بكثير .**عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص111**.

113) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص111.

114) المصدر نفسه، ج1، ص119

115) **توقرت أو توكرت** مدينة بالقرب من درجين وبالقرب من نفطة من بلاد الجريد. **الحميري: المصدر السابق، ص33**.

116) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص114، 120.

أكثره، وفيه بلاد عديدة، وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض، ثم نزلوا على ماء يقال له الرباح، ومنه الى العلندا[117].

ومنها نحو احدى قرى نفزاوة[118] بالمغرب الادنى، وبلاد نفزاوة هذه قرى كثيرة تقرب من الألف، كل قرية منفردة وحدها على نشز من الارض بنخل مجتمع بإزائها، وفي اليوم الثالث رحلوا من نفزاوة تاركين جبال مطماطة على يمينهم وهي تابعة لعمالة قابس أين صادفوا مراد باي بن حمو باي عامل تونس[119].

وقد مر الركب بقرى متعددة منها قرية عرام الصغيرة والتي التقى فيها مع ركب أهل تونس القافلين من الحجاز[120]، وهذا يدل على أن الطريق معتادة السلك والاتباع من قبل الحجاج، وبعده بمسافة قصيرة إلتقوا بركب حجاج الجزائر، بمنطقة الزاوية الغربية، وكان وفدهم قافلا من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ ابن الوالي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي، متوجها الى جزيرة جربة، وكان امير ذلك الركب سيدي محمد بن المسعود من بلاد سدوكال- واعتقد أنها مدوكال وهناك خطأ مطبعي للنساخ-وله رباع ببسكرة وربما استوطنها، وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممن كان يتردد بالركب الشريف، ومما لقى

---

117) المصدر نفسه، ج1، ص122-123.

118) **نفزاوة:** مدينة من أعمال إفريقية قال عنها البكري: وتسير من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو المغرب وبمدينة نفزاوة عين تسمى بالبربرية تاورغي وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة وهي كثيرة النخل والثمار وبين مدينة نفزاوة وقابس ثلاثة أيام، وقد ضبطها ياقوت الحموي بكسر النون وبأنها مدينة من أعمال افريقية ووردت عند ابن خلدون بفتحها. **البكري: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ج2، ص224؛ و معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج5، ص296.؛ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا،دار الكتاب اللبناني، 1979، ص248.**

119) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر السابق، ج1، ص125، 127-128.

120) المصدر نفسه، ج1، ص129.

العياشي في هذا الركب الحاج الأبر الشيخ إبراهيم بن جلاب الريغي أخو الأمير العادل الشيخ أحمد والد أمير بلاد ريغ في هذا العهد، وكان مجاورا بالحرمين عدة من السنين[121].

ثم ارتحل الوفد قاصدا مدينة طرابلس[122]، ودخلوها ظهر يوم الاربعاء في السابع عشر رجب الفرد وهي مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة، وكان عادة الركب إذا دحل هذه المدينة سيما في الذهاب، أن يقيموا بها نحوا من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التي قل نظيرها، وهي مفازة برقة[123]، ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الابل والقرب ويتخذون زاد نحو ثلاثة أشهر الى مصر[124].

ومن مصر يتوجه وفود الحجيج المغاربية الى بلاد الحجاز في نفس الطريق القديم المعتاد.

أما طريق عودة العياشي الى موطنه مارا بالمغرب الاوسط "الجزائر" رفقة ركب الحج فقد كان مختلفا، حيث تم سلك الطريق الداخلية أو ما يعرف بطريق الهضاب.

ج) الطريق البحري:

---

121) نفسه، ج1، ص133.

122) **طرابلس**: مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر بها أسواق حافلة وحمامات كثيرة وبينها وبين سرت عشر مراحل وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون .**الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، د ت، ص389**.

123) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص125.

124) برقة مدينة كبيرة بين الاسكندرية وإفريقية، بينها وبين البحر ستة أميال. **الحميري: الروض المعطار، ص91**.

ظهر دوره جليا بعد غزو بني هلال لبلاد المغرب، حيث أصبح الحج برا مستحيلا، وأن السفر على سفن مسيحية أثار مشاكل شرعية وعملية، كما تعرضت المراكب في البحر إلى خطر الرياح الشديدة كما حدث سنة (507هـ/1113 م)[125].

كما أن تأثير الاحوال السياسية كان واضحا من خلال اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية، الأمر الذي أدى بالخلافة الفاطمية الى التضييق على الحجاج المغاربة في مصر، حتى أصبح الحجاج المغاربة يعدلون عن طريق مصر[126].

وكثر بسبب ذلك استعمال الطريق البحري الذي يمر بالمدن الايطالية والصقلية، ومن صقلية الى عكا وأصبح المغاربة يفضلون طريق عكا بسبب المضايقات التي يتلقونها من المصريين، ولاسيما في بدايات النصف الثاني من القرن 6هـ/12 م[127].

وقد ذكر ابن جبير، وبين الظلم الذي كان المغاربة يتعرضون له في المشرق على أيدي موظفي الدولة خاصة في مصر، يقول"كما أنه لا عدل ولاحق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين، أعزهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين"[128].

---

125) يمكن القول أن كبار الفقهاء في العصر الصنهاجي أمثال عبد الخالق بن عبد الوارث أبو القاسم السيوري وهو من كبار علماء المذهب المالكي وأبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري لم يحجوا وكانوا يرون أنه يتعذر أداء فريضة الحج بالنظر إلى المخاطر المترتبة عليها.**وجدان فريق عناد: المرجع السابق، ص74.**

126) عزالدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت القاهرة، 1983، ص268-269.

127) المرجع نفسه، ص321-322؛ **ووجدان فريق عياد: المرجع السابق، ص75.**

128) الرحلة، دار صادر، بيروت، 1959م، ص56.

ذكر ابن القطان أن ابن تومرت توجه الى الحج الى بلاد الحجاز متجها الى الاندلس وجاز من مرسى ألمرية بمركب نحو الشام ومنها الى الحجاز[129]، ودعم ذلك ابن خلدون الذي زاد بأنه درس في قرطبة ومنها جاز عبر البحر الى الاسكندرية ومن هذه الاخيرة تحول الى مكة برا [130]وهذا يدل على أن بعض المغاربة ومنهم أيضا حجاج بلاد المغرب يستخدمون الطريق البحري للحج.

يذكر ابن خلدون رحلة حجية قام بها كبار رجال الدولة الزيانية سنة 724هـ منهم حاجب السلطان الزياني أبي تاشفين وهو هلال مولى يحي بن موسى، حيث أقلع من مرسى هنين بساحل تلمسان في عدة سفن اشتراها بماله الخاص وشحنها بالقوت والرجال، ونزل في ساحل الاسكندرية، ثم صحب ركب الحج من القاهرة برا ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى ونشأت بينهما علاقة صداقة[131].

---

129) ابن القطان:نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكـــي، دار الغـــرب الاسلامي، ط1، 1990، ص62.

130) العبر، ج6، ص301-302.

131) يقول بن خلدون: هلال أصله من سبي النصارى القطلونيين، أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، وصار إلى السلطان أبي حمو، فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالي المعلوجي، ونشأ معـــه تربيا، وكان مختصا عنده بالمداخلة والدالة، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو. ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولاه على حجابته، وكان مهيبا فظا غليظا، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس ســـطوته، وزحزح المرشحين عن رتب المماثلة إلى التعلق بأهدابه، فاستولى على أمر السلطان. ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب، واستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هنين بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة وأقام كاتبه الحاج محمد بن حونته بباب السلطان على رسم النيابة عنه. وأقلع سنة أربـــع وعشرين فنزل بالإسكندرية، وصحب الحاج من مصر في جملة الأمير عليهم، ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى، واستحكمت بينهما المودة. ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان، فلم يجد مكانه من السلطان. و لم يزل بعد ذلك يتنكر له وهو يسايسه بالمداراة والاستجداء إلى أن سخطه؛ فتقبض عليه سنة تسع وعشرين وأودعه سجنه؛ فلم يزل معتقلا إلى أن هلك. العبر، ج7، ص152؛ ومحمد بـــن معمـــر: المرجـــع السابق، ص286.

الخاتمة:

-عرف المغرب الأوسط الجزائر" الحج منذ بداية الفتح الاسلامي، وكان بمبادرات شخصية سواء خلال العهد الرستمي أو الحمادي، وبدءا من العهد الموحدي ظهر الموكب الرسمي ليصبح أكثر تنظيما في العهد الزياني والمريني.

-اهتم سكان المغرب الاوسط "الجزائر" بركب الحج وهيئوا له المسالك والطرق من خلال توفير مختلف السلع وحفر الأبار وتوفير الأمن بل وحتى تقديم المساعدات المالية والمئونة الممكنة.

- اختلفت طرق الحج والمسالك من فترة لآخرى ومن مكان لآخر في بلاد المغرب الأوسط حيث تعددت بين الطريق البري الشمالي، الذي ينطلق عادة من تلمسان وملیانة مرورا بالشلف وميلة وصولا الى قسنطينة ثم بونة وتونس ومنها الى الاسكندرية، إضافة الى الطريق الصحراوي القادم من توات مرورا بالساورة واركلا وتوقرت وصولا الى نفزاوة بليبيا ثم الى القاهرة، وهناك الطريق البحري الذي برز أثناء انفلات الامن وسيطرة قطاع الطرق على المسالك البرية حيث كانت الاندلس وصقلية أهم منطلقاته.